النص والمنهج بين إشكالية المصطلح وزئبقية المفهوم - قراءة في فكر محمد بنيس نموذجا

الطالب: عبد القادر فرجاني

المشرف: د. صادق خشاب

جامعة الدكتور يحي فارس – المدية – الجزائر

ملخص: يعزف على وتر الفكر النقدي المعاصر لحن: جدلية النص الأدبي والمنهج النقدي، وفي هذا الصدد تعد جدلية النص الأدبي والمنهج النقدي من المواضيع الأساسية التي شغلت مساحة في الدراسات المعاصرة ، إن هذه العلاقة لم تعرف سوى التنافر والتجاذب والسبب عائد في ذلك إلى حقيقة واحدة هي الطرائق التي يتعامل بها الناقد مع النص والتي تيسر العلاقة بين كلا الطرفين – النص والمنهج- كل هذه الأفكار وأخرى غيرها ، تسعى الدراسة إلى البرهنة عليها من خلال محاورة نص: هو النص النقدي ، حيث لوحظ على المنهج النقدي بأنه يمارس سلطة وهيمنة صريحة دون أن يضع في الاعتبار النص الأدبي وخصوصيته، إلى ذلك حاولنا عبر هاته الورقات وضع مقاربة في فهم جدلية النص النقدي والمنهج النقدي في الخطاب النقدي والأدبي ، وهي تمكين الباحث والقارئ من أفكار صحيحة ينطلق منها لفهم روح وفلسفة الخطاب النقدي والأدبي.

الكلمات المفاتيح: الفكر النقدي المعاصر- جدلية النص الأدبي والمنهج النقدي- النص والمنهج – الدراسات المعاصرة

***Abstract**: The dialect of modern critical thought plays a tune: the dialectic of the literary text and the critical approach. In this regard, the dialectic of the literary text and the critical approach is one of the main topics that occupied an area in contemporary studies. This relationship is known only as dissonance and attraction. Which the reader deals with the text and which facilitates the relationship between both parties - the text and the methodology - all these ideas and others, the study seeks to prove it through a text dialogue: is the critical text, where it was noted on the monetary method that exercise authority and hegemony, Mind the text We have tried through these papers to develop an approach to understanding the dialectic of the critical text and the critical approach in the critical and literary discourse, namely, to enable the researcher and the reader to develop sound ideas and philosophy of critical and literary discourse...*

Key words: dialect of modern critical- the dialectic of the literary text and the critical approach- the text and the methodology -contemporary studies.

مقدمة :

أصبحت الجلسات نقدية تركز كثيرا على الشعور بأزمة المنهج والنص في الخطاب الأدبي والنقدي عند العرب، ولذلك كان من الضرورة دفع النقاد العرب المهتمين بقضايا المنهج والنص لإعادة التفكير في الواقع النقدي المتأزم وكيفية الخروج منه. والكتاب الذي بين أيدينا يتناول موضوعاً جديداً يدور حول نظريات المنهج ونماذجه وبعض التحديات التي قد تؤثر في المنهج النص، ولا شك أن نظم الخطاب الأدبي والنقدي، تتأثر بحركة التطور للفكر الإنساني والممارسات النقدية. وتشهد البشرية اليوم ثورة في النقد والأدب لم تعهدها من قبل أثرت بشكل أو بآخر على نظم الخطاب الأدبي و النقدي ومكوناته وعناصره في وجود تحديات ثقافية وحضارية ، من هنا وقع اختيارنا على مؤلف " حداثة السؤال " للشاعر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والكاتب المغربي " محمد بنيس " الذي يتوقع منه أن يساعد القارئ على تكوين رأي ناقد وتبني وجهة نظر لنظريات المنهج ونماذجه وطبيعة النص وكثير من القضايا النقدية التي تشغلنا، وبقدر جهود التطوير وعمليات المخاض الفكري لمجال المناهج والنصوص النقدية ، بقدر التوصل إلى نظريات ونماذج للمنهج تسهم في تجويد الممارسات النقدية في داخل بوتقة الخطاب الأدبي و النقدي، وقد أدى تدني المستوى الأدبي والأداء النقدي للمناداة بضرورة البحث عن استراتيجية لإعادة تحقيق الجودة لمواجهة التحولات الثقافية والنقدية والأيديولوجية لمجتمعاتنا العربية وكذلك للمؤثرات الأجنبية ، وهكذا لقد تزايد في الآونة الأخيرة في المجتمعات العربية – بصفة خاصة – إيمان بأهمية المؤثرات الأجنبية في إحداث التطوير والتنمية في الخطاب الأدبي و النقدي وضرورة عودة دور التراث النقدي والأدبي كأداة في صنع التقدم والتطوير، من هنا يمكن أن نتساءل :

- كيف تسهم نظريات المنهج ونماذجه في بناء الخطاب الأدبي والنقدي؟
- وما الوسائل الكفيلة بمعالجة صائبة لنص أدبي معين؟
- هل يفرض النص نفسه على المنهج، أم أن المنهج هو الذي يفرض نفسه؟

إشكالية النص والمنهج:

إن مصطلحي النص والمنهج لا يبرحان غير قاريين ، ولا مجمع عليهما في الممارسات النقدية العالمية (من حيث هما مفهومان)، ولا في الاستعمال النقدي العربي المعاصر من حيث هما مصطلحان ، وذلك كله يتلخص في سببين أحدهما يتمثل في غياب الممارسة والتنظير النقدي الفعال في النقد المعاصر ، أما الثاني فهو اختلاف ذهنيات النقاد والمفكرين العرب في تعاملهم مع المؤثرات الأجنبية ، لذلك وجدنا بعض النقاد ومنهم " عبد السلام المسدي " يضع مفهومي " النص والمنهج " موضع المراجعة والنقاش « ... أما البعد النقدي فيفسره غلبة المناحي المذهبية في التيارات النقدية الحديثة، وهي ظاهرة يخصب بها الإفراز العقائدي وتشل بها الرؤية الفردية الواضحة... أما انعدام البعد الأصولي فلا مرد له إلا الحواجز القائمة بين مصادر التفكير عند العرب ولا سيما المحدثون منهم، وأكبر حاجز آثم كاد يطغى على تاريخ الفكر العربي هو ذاك الذي قام بين الفلسفة والنقد الأدبي»[1]، هكذا فمسألة النص والمنهج تثير كثيرا من النقاش ، هي مسألة (البعد النقدي والبعد الأصولي) لقد اتخذ هذين المفهومين في سياقات ومواقف لم تبرح دائرتهما تتسع في النقد المعاصر بفعل اتجاهين الأول يتبنى الأصالة ليخفي عجزه وانغلاقه، أما الاتجاه الثاني فهو غارق في التبعية ويزعم أنه متفتح، وهكذا « وراء كل واحد من أنبيائنا الجدد يرتسم ملك وحي يوحي إليه أجوبته ونداءاته :لوثر وراء محمد عبده و مونتسكيو وراء لطفي السيد وسبنسر ور[2]اء سلامة موسى »[3]، ويختلف المنظرون العرب في تناول مثل هذه المفاهيم اختلافا كبيرا ، إذ يفهم من هذا الاستشهاد القصير الذي استدللنا به أنها لا تخلو من ضبابية وغموض ، وأنها لم تستقر تنزاح انزياحا غير مبررا ، وكأن قيمتها في المفاهيم النقدية لا تبرح قلقة غامضة ، فالانغلاق والانفتاح أو الرفض أو القبول دون تفكير كلها متناقضات تنبئ على تيه منهجي ، ونعتقد أن " عبد العزيز حمودة " في ثلاثية الشهيرة " المرايا المقعرة ، المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيكية ، الخروج من التيه ، قد لامس إشكالية مفهومي النص والمنهج ، بوعي معرفي باد ، وذلك حين ألح كثيرا في كتاباته على مسألة حركية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفكر النقدي المعاصر ، فهو كغيره من النقاد والمفكرين عانى من ضغوط كثيرة لتغيير اتجاهه النقدي المتزن الذي يأبى أن يكون تابعا دائما في سبيل التأصيل لخطاب نقدي عربي يخلو من الإشكاليات التي تعصف بخطابنا النقدي، حيث اعترف شخصيا في حوار أجراه معه سالم ممدوح قائلا: « ظل لسنوات يقف أمام أعمال النقاد الحداثيين بانبهار شديد (..) لكن ذلك الانبهار خالطه طوال الوقت – شعور عميق – لم أفصح عنه حتى اليوم: العجز عن التعامل مع هذه الدراسات البنيوية وفهم أهدافها ، بل فهم وظيفة النقد ذاته »[4]،ويبدو أن القضية كلها في تفكير النقاد العرب أنهم انساقوا وراء الإصرار على عزل المصطلح عن تقمص معناه الأصلي بحكم أعمال تصورات الحداثيين الغربيين في كثير من تأثيلاتها ، فجعلوا النص والمنهج مجرد وسائط ، أي دلالات سلبية جوفاء لا معنى لها في ذاتها ، وهذا أمر يفتقر إلى النقاش والتكملة والتوسع ، فمثلا في التفكيكية « كان من الصعب تماما أن نفهم أفكار أحد مؤسسي هذه المدرسة أو الفلسفة أو المنظور مثل جاك ديريدا »[5]، وهكذا غالبا ما تصادف تفكيرنا وتجتاحه مفاهيم كثيرة تظهر ، لأول وهلة ، جلية في الأذهان جلاءا كاملا ، أو بروزا ما ، إلا أن المتتبع لمسارها إذا ما نفحصها جيدا، وأمعن متعمقا في مضامينها ، تشكلت في مخيلته صنوفا من الأسئلة والطروحات قد يجد لها بعض الإجابات من ناحية ، وقد لا يجد لها من تلك الإجابات شيئا من ناحية أخرى ، كما قد تصادفنا مفاهيم جمة أيضا متواشجة إلى حد الترابط ، ومتوازية إلى حد التشاكل في بعضها البعض . وإذا كان كثير من المنظرين في التفكير النقدي المحلي لا يفضلون خوض غمار البحث في بعض الفويرقات الطفيفة التي يمتاز بها النقد الغربي عن النقد العربي ، فإذا ما أثيرت مسألة النص والمنهج نجد أنفسنا أمام إشكالات قد تكون على غاية من التعقيد ، إذ لم يمنحها النقاد العرب المعاصرون كما هائلا من العناية والاهتمام ، إن النص والمنهج مفهومان نقديان متقاربان فكلاهما يبعث على صنوف من القيم والتيمات المتشعبة ، لتكون هذه المفاهيم غامضة بحيث يستطيع كل قارئ تفسيرها حسب ما يفهمه ، لتتجسد الغموض في صورة « القارئ العربي لم يكتمل أمامه المشهد النقدي المعاصر الخاص بالنظريات النقدية »[6]، فالمتصفح لبعض المدونات النقدية العربية المعاصرة ، يدرك معاناتها كثيرا من الغموض والضبابية والنظرة الأحادية ، على الرغم من بعض جهود أقلام كثير من المفكرين في تعديل دلالة الواقع النقدي المعاصر ، إلا أن القارئ العربي ظل رهين التكرار والتبعية والإجترار ، وقد ساهمت في تعتيم هذا الوضع على تفكير هذا القارئ عوامل ودوافع منها : وفاؤه للنظريات النقدية الغربية وتقديسه لها ، فانقسم الفكر النقدي العربي بسببها لمؤيد للتفاعل مع هذه النظريات ، وآخر معارض لها، ولعل من أجل ذلك نلفي محمد بنيس (وهو شاعر وأديب مغربي) يقر بأنه لم يستطع قط أن يضع حدودا فاصلة بين النص والمنهج ، ذلك أن الإبداع ليس إتباع لكل ما ينتج لدى الفكر الغربي من نظريات وأفكار ، وأن الإسهام في تعديل دلالة المشهد النقدي العالمي يبدأ بنقده ، وهو يرى أن الفصل بينهما في الزمن الراهن ، لا يعدو أن يكون فصلا مؤقتا ، وأن الفصل الذي كان يطمح إليه " إدوارد سعيد " في كتابه (النص، العالم ، الناقد) يتمثل أن « الإبداع ليس كطريقه الإتباع، وأن الإسهام في إنتاج المشهد النقدي العالمي يبدأ بنقده وإعادة النظر في علاقاته والمشاركة الواثقة (التي لا تنطوي على عقدة دونية) في الإضافة إليه »[7]، فكان المنهج النقدي عند محمد بنيس يدعو إلى تفاعل مع الفكر الغربي وما ينتجه من نظريات وخطابات نقدية لكن وفق أطر وضوابط متسقة ، من خلال تغيير في طرائق التفكير بالغير، ، ولعل عنوان مؤلفه يؤكد لنا حقيقة هذا التفاعل (حداثة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السؤال)، ذلك التفاعل الذي يتيح إنتاج خطاب نقدي يراعي خصوصية النص الأدبي لكل من الطرفين وذلك تجنبا للوقوع في الإشكاليات التي قد تكتنف الواقع النقدي العربي وتجعل القارئ مضطربا غير قادر على التعامل مع أية مسألة نقدية بسهولة .

الممارسة النقدية عند محمد بنيس في مؤلفه " حداثة السؤال " : تتسم الممارسة النقدية في فكر محمد بنيس بالأصالة والجدة، فيحاول أن يعثر على ما يؤخر عزوف النقاد عن التفاعل مع مستحدثات النظريات الغربية في ترقية النقد العربي وتوسيع آفاقه ، عبر إيجاد طرائق جديدة للتعامل مع النصوص ، من خلال الفهم الجيد والاستيعاب المركز لهذه المناهج والتحكم في مصطلحاتها وكل آلياتها الإجرائية ، فالتفاعل في أجلى صوره فهم واستيعاب وليس استهلاكا لما استهلك من قبل الآخرين ، و ضمن هذه الأفكار ينبثق إشكال مركزي مفاده : هل يفرض النص نفسه على المنهج، أم أن المنهج هو الذي يفرض نفسه؟ ولعل هذا هو الجواب عن السؤال ، إذ كل المعطيات النظرية والتطبيقية تؤكد على فكرة أن محمد بنيس ينطلق في تعامله مع النصوص النقدية، وينصت إلى ما يتطلبه النص من انسجام منهجي، لا يصغي إلى المنهج، فالناقد يعتبر النص صاحب السلطة أي ؛ (المركز) لا المنهج المتبع في الدراسة وأدواته الإجرائية، على خلاف كثير من الدارسين العرب الذين ستخدمون المنهج بصفة مركزية أعلى من النص ويسقطون المناهج على أي نص دون أي اعتبار منهم لمطابقة الأدوات الإجرائية للنموذج النصي من عدمها ، وهذا كله لا يجعلنا نقصي للمنهج ونزيحه ، إذ« أن المناهج سلعة نادرة الوجود بل هي مقسمة على عدة اختصاصات مع اختلافات في التطبيق ويعتمد في ذلك موقف ابستمولوجي مؤصل ومؤهل وموجه»[8] ، هكذا يشترط في أي مجال معرفي جملة من الضوابط التي تجعله مؤصلا وموجها توجيها سليما كالرؤية النظرية التي يمكن وسمها بجملة الخلفيات والمنطلقات النظرية التي يستمد منها المنهج آلياته ، وكذلك الشمولية التي يقصد بها الرؤية الواسعة للأثر الأدبي ، واتساع المنهج لمعطيات النص البنيوية والدلالية مهما كانت صفة هذا الأثر الأدبي ونوعه ، إضافة إلى الاستقلالية وهي تداخل المناهج مع بعضها دون الوصول إلى درجة ذوبان منهج في منهج آخر ، إذ لكل منهج رؤيته الخاصة ، والآليات الإجرائية باعتبارها سندا للمنهج يسهم في تأطير الممارسة النقدية وتطبيقاتها ، وهكذا ما كان محمد بنيس يسعى للتأسيس له عبر منظومة نقدية قوامها التماثل بين النص والمنهج من غير إقصاء أو إزاحة لأي طرف من أطراف الظاهرة الأدبية سواء ما ارتبط بالداخل النصي أو خارجه ، ومنهجه هذا يظهر في مؤلفه محل الدراسة —، الذي يتمثل في عملية تحديد المنهج في تقويم الممارسات النقدية وفك شفراتها، ولقد كانت إنطلاقته من ركنين أساسيان هما: إعطاء مفهوم مركز للنصوص النقدية . و اتخاذ موقف من المناهج النقدية ، سعيا منه للوصول إلى قراءة تجديدية للنقد العربي دون أي إسقاط عشوائي في تطبيق المناهج على أي نص نقدي ما ، كما نجده يركز في منهجه هذا على قضية جد مهمة تتمثل في أن « النص حين يفقد قارئه يتعرض للإلغاء ، وحتى يكون النص فاعلا منتجا لذاته باستمرا ر أي مقروءا فإن عليه أن يهاجر بين أنظمة هي من بين طبيعة إنتاجه (دليل لغوي، موسيقى ، مرسوم) باتجاه تحقيق سلطته، بل إننا نجد نصوصا (خاصة وأن مفهوم النص لم يعد مقتصرا على المنتوج اللساني) تمتد هجرتها فتتجاوز الفعل داخل أنظمة لها دليلها الخاص بذلك فتلتحق بأنظمة دلالية أخرى »[9] ، هكذا يمارس النص النقدي فعل الهجرة إلى نصوصا أخرى ، وهذا كله يتم تحت راية التداخل النصي الذي يشكل مرجعية مهمة من مرجعيات المنهج

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النقدي عند محمد بنيس ، يتم بفضلها إضاءة مصطلحي "النص والمنهج " من مفاهيمه القديمة إلى مفاهيمه الحديثة، على أن النص أعم وأشمل من المنهج ، كما أبانت عن ذلك الممارسات النقدية في ضرورة العناية باللغة ومدلولاتها، وتجاذبها مع التصور المعاصر للقراءة بالتفسير أو التأويل أو العلاقات المتبادلة بين القارئ والمقروء، أو الوعي النظري والتطبيقي في النصوص والمناهج وآلياته الإجرائية التي من شأنها أن تضيء طرفي النصوص النقدية (الداخل والخارج) ومن بينها السيميائية وعلم اجتماع الأدب على سبيل المثال لا الحصر ، وما يجدر الإشارة إليه أن هذه المفاهيم لم تسلم من النقد مثلها مثل المفاهيم التي اعتمدها بنيس تماشيا مع استراتيجيات القراءة التي تقوم على الهدم وإعادة البناء ، وهذا بإقرار من بنيس الذي كان يقول « نتبنى هذا التعريف ونخترقه في آن واحد »[10]، وهكذا اعتمد على القراءة اللغوية والتأويلية والتجديدية، مثلما شرح قراءات النص الأخرى التفسيرية والخلاّقة، التي تعمل على إنتاج الدلالة عن طريق طرائق الإدراك والتحليل والمقارنة والنقد، وهدفه البحث عن الحقيقة، وإماطة اللثام عن المناهج العربية القديمة في قراءة النص، للبرهنة على أن نظريات القراءة ليست ابتكاراً معاصرا من بنات الفكر الغربي وحده، ويدلل على ذلك من منطق أن الإنسان العربي يمتلك بعض من الكفاءات الثقافية التي تمكنه من إنتاج مناهج جديدة تعبر عن أفكار تجديدية ، وتتلاءم مع ذوقه، فالقراءة نفسها عامل إنساني مشترك بين جميع الشعوب، هكذا يلمس المرء في تأويل بنيس حفرا معرفيا في مجالات تحليل متعددة: التحليل النفسي، التحليل المقارن للعناصر الإناسية، التحليل بالاستعانة / اللغة والمعاني والدلالية والرموز والتعارض الحكائي والتناص مما هو سمات للمنهج التفكيكي على نحو ما، من خلال استمداد بعض التأويلات النقدية في قراءة النص التراثي، فـ « لا معنى للنقد والتجربة والممارسة إن هي لم تكن متجهة نحو التحرر. هذه هي القاعدة ، لا علاقة للكتابة بكل نقد عدمي أو فوضوي ، ولا بأي تجربة أو ممارسة تعوق تحويل الواقع وتغييره من وضعه اللاإنساني إلى احتفال جماعي. وليس النقد العلمي المناهض للايديولوجيا، إلا طريقا لتحر الإنسان فردا وجماعة، داخلا وخارجا»[11]، لينطلق بنيس في نقده للنص التراثي من منظور بنائي تفسيري، بما يفيد إعادة اكتشاف النص القديم ذاته يمكن أن تتم بالنظر في النص الحديث. وثمة قضايا تثري الخطاب النقدي العربي ، ومنها قضية الدلالة، وقضية الغموض، وقضية الإيقاع، وقضية التمسك بالتراث، وقضية النظرية الأدبية وغيرها، على ألا تنقطع هذه القضايا عن تواصل التراث والحداثة، من خلال البناء الشكلي ومحتوياته، وترسيمات القراءة للنصوص على اختلافها وتنوعها .

إن أهم إشكالية نقف عندها في ظل تحديدات أوليات النص والمنهج هي تصنيف هذه القراءات التجديدية في قراءة التراث وتكوين العقل العربي من منظور الغاية في المجالات التالية: القراءة الانتقائية التي تحاول التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، والماضي والحاضر، والقراءة التثويرية التي تهدف إلى تقديم مشروع رؤية جديدة، ننتقل بها من التراث إلى الثورة، حسب تعبير محمد بنيس، أو من العقيدة إلى الثورة، حسب رأي حسن حنفي، أو من الثابت الإتباعي إلى المتحول الإبداعي، حسب رأي أدونيس، أو من الضرورة إلى الحرية، حسب رأي حسين مروة، والقراءة التنويرية التي تسعى إلى الكشف عن "تكوين العقل العربي"، في فكر محمد عابد الجابري، أو الكشف عن المستويات الخطابية السائدة في الفكر العربي بأبعاده العربية الإسلامية في فكر محمد أركون، هكذا نلاحظ انتقالية بنيس من التراث إلى الثورة، لكن نجده في ظل هذه الانتقالية يطرح قضية جد مهمة مفادها: القراءة النقدية بين المشرق والمغرب ، ولقد جاء في مؤلفه محل الدراسة قوله « ... غالبا ما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

طرحت العلاقة غير المتكافئة بين المشرق والمغرب بانفعال، له ما يبرره في بعض الحالات ، ولكن هذا الطرح لم يتجاوز بعد توتراته النفسية لينفتح على وعي متكامل بشرط وجود هذه العلاقة ونتائجها، وهو أمر يتطلب اجتلاب مجال معرفي مغاير للمجال المعرفي التقليدي »[12]، الملاحظ أن المناهج النقدية من المسائل التي أثيرت حولها كثير من الجدالات في النقد العربي ، لكن ما يصرح به محمد بنيس يحيلنا على حقيقة ستنسينا هاجس تلك المناهج ، والحقيقة وليدة النقد العربي عبر العلاقة غير المتكافئة بين المشرق والمغرب، فهل يمكن للعلاقة غير المتكافئة بين المشرق والمغرب أن تخلق مركزيات مغاربية ومشرقية ضمن اشتغالها داخل الخطاب النقدي بين الأصالة والمؤثرات الأجنبية ؟

إن الجواب على هذا التساءل يبدو صعبا نوعا ما ، فحسب بنيس يجب وضع أفكار ومواقف بعض الكتاب والمفكرين عرضة للمساجلة والنقد، ليكون التأكيد بأنه ليس هناك حد فاصل بين (المشرق) و(المغرب) في تعاملهم مع النص والمنهج في النقد العربي ، فلهم نفس الأفكار أما الاختلاف فيكمن في طرائق عرض تلك الأفكار ،إذن « لن أجعل من المغرب (شهيد) الثقافة العربية ، فعلاقة المشرق بالمغرب هي علاقة بعض المشرق ببعضه الآخر، بل إن هده العلاقة متحققة بداخل المغرب نفسه، لا بخارجه فقط، ومن هنا أقول أن بالمغرب مشارق عديدة، كما أن بالمشرق مغارب عديدة »[13]، وهكذا يجب أن تتلازم قراءة التراث مع المدلولات النقدية والفكرية لتحقق الهوية ووعي الذات فالمنهجية لا تنفصل عن الخلفيات والسياقات التاريخية والاجتماعية والثقافية لحظة عملية القراءة، وأولها القارئ، وثانيها المقروء، بعيدا عن تلك الضمنيات والأنساق التي تعطل مسار الفكر ، بل محاولة مسايرة التطورات الحديثة في قراءة التراث ، ليحيلنا بنيس إلى مراحل تشكل المفاهيم والمصطلحات بالمقارنة مع اللغات الأجنبية عند معالجته لمفهوم النص ومصطلحه « ... إن النص، كدليل لغوي معقد، أو كلغة معزولة، شبكة فيها عدة نصوص. فلا نص يوجد خارج النصوص الأخرى، أو يمكن أن ينفصل عن كوكبها »[14]، وهكذا ربط الدارسين العرب المصطلح بالمناهج النقدية كالعلامية والتفكيكية والأسلوبية والنصية...الخ ، لذلك وجد كل من النص والمنهج أيضا صعوبة في تصنيفهما عن العرب؛ وهاهو بنيس يحاول تصنيفهما من خلال إيراده لمفاهيم حديثة للنص حسب اللسانيات والملفوظية والتأويل إزاء الصوت والسطح والدلالة والبنية، ثم فصل الرأي في مفاهيم سيميائية للنص ومتعالقاته ومتناصاته ، والإنتاجية، والتناصية، والمرجعية، والمخاض الدلالي للنص... الخ، وعندما قارن التكون الاصطلاحي وتطوراته بين النقد الغربي و النقد العربي، وجد تبريرا عند عبد الرحيم الكردي « على أن نظريات القراءة ليست ابتكاراً معاصراً من بنات الفكر الغربي وحده، ويدلل على أن الإنسان العربي المعاصر يمتلك من الجذور الثقافية التي تمكنه من إنتاج مناهج نقدية تعّبر عن فكرة، وتتلاءم مع ذوقه، فالقراءة نفسها عامل إنساني مشترك بين جميع الشعوب»[15]، ليستنتج بنيس في دراسته الواسعة أن العلاقة بين النصين القديم والمعاصر علاقة تنام في التغاير، حسب الخصوصيات الثقافية العربية، ولتكون دعوة صريحة إلى رسوخ تأصيل النص بالكشف عما لم يكشف عنه القدامى، وتأصيل الذات بدفعها على درب الحيرة والسؤال، وتأصيل المنظومة العربية الأصيلة، وبالعودة إلى جدلية النص والمنهج ، تشدد الناقدة " يمنى العيد " « ليس المنهج قالبا جاهزا في حرفيته و تفاصيله. المنهج مفهوم أو مجموعة مفاهيم يتطلب مجرد تبنيها مقدرة شخصية و جهدا ثقافيا هاما ؛ كما أن ممارسة هذه المفاهيم ليس مجرد تطبيق، بل هو إعادة إنتاج لها قابلة للتبلور و التميز و خاضعة في تبلورها و تميزها لعلاقتها بالموقع الفكري الذي منه تمارس علاقتها بموضوعها و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالوضعية الثقافية و الاجتماعية التي تشكل حقل ممارستها »[16]، وهكذا فالمنهج ليس قالبا جاهزا، و إنما مفهوم أو مفاهيم يستوجب ثقافة و قدرة على التعامل معها ، و النّاقد الجيد هو الذي يعيد إنتاج تلك المفاهيم، و لا يكتفي بتطبيقها و إنما يراعي أيضا مجالها الذي تشكّلت فيه فالمنهجية ليست بالاستظهار الجيد و إنما بفهمها و تكييفها و تطبيقها و مراعاة وضعيتها التي انبنت فيها.

خاتمة : لقد بحث محمد بنيس عن المناهج التي أفرزتها الحضارة العربية في مجال قراءة النص، لتكون بعداً استراتيجياً ونقديا، ومنهجا يتلاءم مع الذوق، والثقافة، وإثبات الذات، وإنتاج المعرفة، من خلال المنهج النصي، "والعناية بالنص الأدبي نفسه، باعتبار أن الجسد اللغوي للنص عند أنصار هذه المناهج هو المدخل الفيزيقي الوحيد لإدراك حقيقة النص إدراكا علميا، أو باعتبار النص وحدة بنيوية مستقلة عن المؤلف والقارئ، ومستقلة أيضاً عن البيئة الثقافية التي أنتج فيها.

- إن تركيبه المنهجي بعيد عن التلفيق ، فالتركيب عنده ينبني على توجه متجانس و متماسك تلتقي معه خصوصيات كل منهج في بوتقة منهج بديل هو – في العمق –محصلة تمازج مجموعة من المناهج في حين أن التلفيق غير خاضع لتصور مبدئي و منهج ، لذا فهو غير مقبول من حيث المبدأ و الغاية.
- من المؤشرات الدالة على خصوصية منهج بنيس على ذلك أيضا استعماله لعدد من المفاهيم المنتمية إلى نظرية التلقي كالقارئ و التفاعل والتوقع و نحوها، و لا شك في أن احتفاله بالملتقي مرده إلى إيمانه بأهميته و ضرورته الملحة لبناء إلى أي نظرية نصية جادة ، و بهذا الصنيع تبرز الشخصية المتميزة للناقد المغربي. و من الممكن القول بأن منهج محمد بنيس منهج تكاملي.
- محمد بنيس تبنى السياق و التقويم، و خالف من دمر المعنى المركزي للنص بدعوى التأويل، و قد ظهرت بهذا الشكل شخصيته القادرة على النقد و الاستلهام من كافة المناهج و تكييفها بطريقة تتناسب مع مختلف النصوص.
- المصطلح مثل الكائن الحي ، إن عني بالقبول والتبني عاش ، وإلا كان مصيره الموت .
- لقد حافظ "بنيس "على المسار الذي سعى إلى إتباعه وفق سلاسل، سعى من خلالها إلى البحث عن سبل تحقيق توافق بين النقد الغربي والنقد العربي والانطلاق في رحلة تقويم المصطلحا[17]ت والمفاهيم ضمن منهجية محكمة ورصينة، ويبقى مجال هذا البحث مفتوحا لمعالجته من زوايا أخرى.

الهوامش:

[1] حمد بنيس ، حداثة السؤال (بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب، ط.2، 1988.

[2] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط.3، د.ت، ص.18.

[3] الطاهر لبيب ، الآخر في الثقافة العربية ،صورة الآخر العربي ناظراً ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة الغربية (مجموعة مقالات) ط. 1، 1999ص. 196.

[4] عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيكية، سلسلة عالم الفكر، الكويت، د.ط، 1998، ص.13.

[5] آرثر أيزابرجر، النقد الثقافي، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة ، ط.1، 2003، ص.60.

[6] رامان سلدان، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر (عبده غريب) ، 1998، ص.10.

[7] المرجع نفسه ، ص.13.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[8] عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل على علم اللسان الحديث:تحليل ونقد لأهم مفاهيمه ونتائجه، اللسانيات ، م.1، ع.1، معهد العلوم اللسانية والصوتية، الجزائر، 1971، ص.20.

[9] محمد بنيس ، حداثة السؤال (بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب، ط.2، 1988، ص.97.

[10] محمد بنيس، الشعر العربي الحديث ، بنياته وإبدالاتها، الدار البيضاء، المغرب،ط.2، ج.1، (التقليدية) ، 1966، ص.63.

[11] محمد بنيس ، حداثة السؤال (بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة)، المرجع السابق، ص.21.

[12] المصدر نفسه ، ص.53.

[13] المصدر نفسه ، ص.54.

[14] المصدر نفسه ، ص.85.

[15] عبد الرحيم الكردي: قراءة النص، مقدمة تاريخية، مكتبة الآداب، القاهرة، 2006، ص. 13.

[16] يمنى العيد في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت،1983، د.ط ، ص. 124 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com